فكاهات

اليتيم (١)

كان في قريةٍ بالقرب من باريس ارملة متقدمة في السن تدعى ارسولة ولها ولدٌ صغير يدعى أندري اعتنت بتربيتهِ الاعتناء الشديد وكانت تحافظ على صحتهِ ولبسهِ وسرورهِ بمنتهى الحنو والشفقة . وربي الولد في حجر والدتهِ وكانت تلتقط بمعظم الابتهاج كل كلمة تسقط من فيهِ وتشترك معهُ في العابهِ . وكانت ارسولة مع فقرها الظاهري تجود بالمبالغ الكثيرة على ولدها فتلبسهُ كاولاد الامرآء وتطعمهُ افخر المآكل ولما اصبح اهلاً لتلقي العلوم ادخلتهُ احدى المدارس العليا التي لا يدخلها الا ابنآء سراة القوم واكابرهم

وكان اندري لا يعرف شيئاً عن والدهِ سوى ما اخبرتهُ والدتهُ من ان اسمهُ أرسول وانهُ توفي قبل ولادة اندري ببضعة اشهر . وكانت ارسولة تأخذ اندري عند طلبهِ لزيارة ضريح والدهِ فاذا بلغ المقبرة ارتهُ ضريحاً بسيطاً لا نقش عليهِ ولا كتابة فيقف أندري ولا يرى هنالك ما يوجب تأثرهُ ولا سيما وانهُ لم يرَ والدهُ ولم يسبق لهُ معهُ شيء من الارتباط بين الوالدين والاولاد . فلم يكن يشعر في نفسهِ امام ذلك الضريح زيادةً عما يشعر بهِ امام بقية القبور المنتشرة في تلك البقعة . وانحصرت محبتهُ وعواطفهُ في تلك الوالدة الحنون فكان يرى ملذات الدنيا في قربها وسعادة الحياة في تقبيل يدها ومنتهى الغبطة النظر الى وجهها

ولما انهى أندري دروسهُ واتقن علومهُ عاد الى بيتهِ وما عتم ان شعر بثقل الدَين الذي عليهِ لوالدتهِ في تربيتها اياهُ وسهرها عليهِ وما انفقتهُ على تربيتهِ وتعليمهِ مع ان ظاهر حالها لا يدل على وجود تلك المبالغ في حوزة يدها . وكان يخطر لهُ انهُ

(١) بقلم نسيب افندي المشعلاني

ربما ترك والدهُ شيئاً من المال وان والدتهُ العجوز قد تكون انفقت جميع ما عندها . ولما خطر لهُ هذا قال في نفسهِ قد حان الوقت الذي فيهِ يجب ان اسعى في اراحة والدتي والتعويض عليها بشيءٍ يقا ل بعض اتعابها عليَّ . ثم اخذ من ساعتهِ يفكر في ما يجب صنعهُ والشغل الذي ينبغي ان يسعى في التماسهِ ولم يفكر طويلاً لانهُ في اليوم الثاني وجد على مائدتهِ كتاباً فض ختمهُ واذا بهِ من ناظر الحربية يستدعيهِ لمقابلتهِ في ذلك اليوم . فأمل اندري خيرًا وما صدق ان جاء موعد المقابلة حتى توجه الى قصر الناظر فقدم اسمهُ وأذن لهُ في الدخول

ولما بلغ اندري ردهة الجلوس رأى امامهُ رجلاً قد وخط رأسهُ الشيب وهو جالس الى مائدة يقلب في اوراقهِ الكثيرة ويكتب الاوامر اللازمة فحياهُ بمزيد الاحترام والوقار . فقال لهُ الناظر يظهر يا مسيو اندري ان لك اصدقاء من ارباب الخطط العالية فقد جاءتني وصاةٌ بك من شخص عظيم يذكر انهُ صديقك ويودّ ان اكتم عنك اسمهُ . ولكن ما لنا ولهذا فاخبرني اين تلقيت دروسك وما هي مقدرتك العلمية وما العمل الذي تودّ ان نقلدك اياهُ . فاخذ اندري يجيب الناظر بفصاحة رائعة وعذوبة صوتٍ فشرح لهُ جميع ما تعلمهُ وانهُ ميالٌ جدًّا الى الهندسة ولكنهُ لا يتوقف عن قبول اي وظيفة كانت لان غرضهُ كسب ما يعول بهِ والدتهُ العجوز التي افنت حياتها ومالها في تربيتهِ وتعليمهِ . ثم بسط امام الناظر الشهادات التي احرزها فسرّ الناظر جدًّا لما سمع ورأى وظهرت على وجههِ علامات الارتياح العظيم ثم عمد الى مائدتهِ فاخذ ورقةً رسمية كتب عليها شيئاً ثم ختمها بالختم الرسمي وناولها لأندري وقال خذ هذا الامر بتعيينك مهندساً برتبة ملازم في فرقة الحرس الملكي براتب ثلاثين ليرة استرلينية في الشهر وسأرقيك كلما بلغني انك تستحق ذلك واعتقد فيك انك لا تلبث طويلاً حتى تحصل على رتبة جنرال . وما سمع اندري هذه الكلمات حتى تمثل والدتهُ وتصوركم يسرها سماع هذا الخبر فتدحرجت من عينيهِ دمعتا الفرح واخذ يشكر الناظر بعبارات بديعة اثرت في نفس الناظر جدًّا . ثم سألهُ ومتى يمكنك ان تشرع في الخدمة . قال سأتوجه توًّا الى والدتي فاخبرها بهذه النعمة التي منحتنيها

واذ ذاك اكون متأهباً لتلقي اوامركم والعمل بها . فتبسم الناظر وقال اذهب اذاً اليوم وتعالَ غدًا صباحاً فقابلني في النظارة . فخرج اندري واسرع في الذهاب الى بيتهِ وهو لا يشعر ان قدميهِ تطآن الطريق لشدة سرورهِ فبلغ البيت وقصّ على والدتهِ ما حصل فسرت لسرورهِ واخذت تستمطر على رأسهِ البركات . وفي الصباح التالي توجه الى النظارة حسب الامر فارتدى باللباس العسكري وانتظم في سلك فرقتهِ وهو يهتز طرباً وجعل يقوم بواجباتهِ كما ينبغي فكان مثال الطاعة والاجتهاد والذكآء وحسن السلوك . ولم يكن يصرف شيئاً من اوقات راحتهِ الا الى جانب والدتهِ وقد اصبح تعلقهُ بها يزداد يوماً عن يوم

ولم تمضِ على اندري اشهر كثيرة حتى تقدمت فيهِ التقارير الحسنة من رؤسآئهِ الى نظارة الحربية فكان ينتقل انتقالاً سريعاً في درجات الارتقآء حتى فاق جميع اقرانهِ

وحدث بعد ذلك ان صدرت الاوامر الى فرقة الحرس الملكي بالتوجه الى الجزائر والانضمام الى الجيش العام فيها فسرّ اندري بهذه الفرصة التي تمكنهُ من كسب اكاليل الغار وبلوغ الدرجات العليا وهو لا يرى في ذلك سوى سرور والدتهِ وتيقنها ان اتعابها على ولدها لم تذهب ضياعاً ولكنهُ حزن جدًّا لمفارقتها وسافر اخيرًا مصحوباً ببركاتها ورضاها

وكانت الاوامر قد سبقتهُ من الناظر الى القائد العام توصيهِ باندري وتشدد في وجوب الالتفات اليهِ واكرامهِ . ولم يكن اندري في احتياج الى مثل هذه التوصية فانهُ ما وصل الى المعسكر حتى عشقهُ القائد العام واحبهُ الضباط واُعجبت ببراعتهِ العساكر فاصبح موضوع حديث الفرنسويين في تلك الاصقاع وكان النجاح يقارن اعمالهُ والتوفيق يخدم آراءهُ . ولكن العالم لا يخلو من اناسٍ تجسّد فيهم الحسد فلا ينامون ولا يهنأ لهم عيشٌ ان لم يصنعوا سوءًا . وكان في الجيش ضابطٌ يدعى دندي لم يرق لهُ تقدم اندري فعمد الى اذيتهِ وكان اعداآء الفرنسويين قد سمعوا باندري وخشوا بأسهُ ورأوا تأخر احوالهم بعد وصولهِ فجعلوا يلتمسون ذريعةً للتخلص من شرهِ . وكان اندري اذ ذاك يشتغل ببنآء استحكامٍ منيع وطد آساسهُ تحت رصاص

الاعدآء ورفع جدرانهُ امام افواه مدافعهم بحيث اذا تم بنآء الاستحكام المذكور تصبح الجيوش الفرنسوية في قلعة منيعة في وسط تلك الصحرآء عوضاً عن بقآئهم في الخلآء معرضين لهجمات العدو في كل آن . فاغتنم دندي هذه الفرصة واجتمع ببعض زعمآء الاعدآء فما لأم على احباط مساعي اندري على مبلغ من المال يؤدونهُ اليهِ ثم تمكن بمساعٍ خفية ان اودع آساس الاستحكام المذكور مقادير من البارود وصل بها اسلاكاً محشوّة تنتهي الى امام معسكر الاعدآء . ولما قارب البنآء تمامهُ جمع اندري رجالهُ ورآء الاستحكام واخذ يرشدهم الى ما ينبغي صنعهُ فما شعروا الا وقد طار البنآء امامهم الى عنان السمآء على اثر طلقٍ كالرعد القاصف ثم سقطت حجارتهُ المتطايرة حولهم . فعلم اندري ان في الامر خيانة ولكنهُ قبل ان يفكر فيما يصنع احاطت بهِ وبشرذمتهِ رجال الاعدآء وقتلوا اكثرهم واسروا الباقي ومن جملتهم اندري . اما الجيش الفرنسوي فأخذ منهُ الذُعر كل مأخذ ولا سيما القائد العام فانهُ اصبح كالمجنون وهو يودّ تخليص اندري مهما كلفهُ ذلك

ولما جآء دندي الى الاعدآء يتقاضى اجرة خيانتهِ اخذهُ زعيمهم ونظر اليهِ نظرة ازدرآء وقال لا خير فيك ايها الخائن بعد ان سعيت في اهلاك اخوانك والاضرار بيني جنسك فأحسن جزآء يُعطى لمن يقدم على مثل فعلتك هو حذف اسمهِ من بين الاحيآء وأستر شيءٍ لاسمك الدنيء ان يُنسى وجودهُ . ثم امر بعض غلمانهِ فاخترقوا صدر دندي بخناجرهم وعلقوهُ على شجرةٍ عبرةً للخائنين

ودامت الحرب مدةً طويلة وكلما امتلك الفرنسويون موقعاً من الارض اقاموا بهِ ورتبوا احوالهم ثم جدّوا في متابعة العرب وآلى القائد العام على نفسهِ ان لا يرجع قبل ان يعرف ما حلّ بأندري ويخلصهُ ان كان باقياً في قيد الحياة

اما اندري فسئمت نفسهُ تلك الحال لما قاساهُ من ذلك الاسر وهو كلما تذكر والدتهُ يذوب قلبهُ في صدرهِ فيبكي وينتحب . وبعد ثلاث سنوات تمكّنت الجيوش الفرنسوية من تشتيت شمل العرب ولا تسل عن فرحهم الشديد عند مقابلتهم لاندري حيًّا . وما استتبت بهم الراحة والصفآء حتى استأذن اندري في العودة الى

فرنسا لزيارة والدتهِ فأُذن لهُ وعاد وهو غير مصدق بنجاتهِ وبودّه لو ان في امكانهِ جذب شواطئ فرنسا اليهِ

ولما بلغ باريس توجه توًّا الى منزلهِ القديم ولكنهُ لم يرَ ذلك الوجه البشوش آتيـاً لمقابلتهِ ولم يسمع ذلك الصوت العذب مرحباً بهِ ولا ذلك الصدر الفسيح يستقبلهُ اليهِ . فوقف امام الباب وهو لا يجسر على الدخول وجلاً ورآهُ الجيران فتقدمت امرأةٌ منهم وسألتهُ من يريد فقال لها اريد السيدة ارسولة . فطفحت عيناها بالدموع وقالت ان ذلك الملك الطاهر مثال الرحمة واللطف والانسانية لم يبقَ هنا فقد ذهب الى السماء واما الجثة فقد اعتنى بدفنها قومٌ جاءوا باريس لهذه الغاية وواروها في مدفن كنيسة نوتردام . فلم تقع هذه الكلمات على مسمع اندري حتى انفطر قلبهُ وجعل يتلهف وينتحب فتألب القوم حولهُ يسلونهُ ويؤسونهُ ولما هدأ روعهُ طلب عربة وتوجه توًّا الى المدفن وهو يسكب العبرات ويصعّد الزفرات . ولما بلغ المدفن وجد جمهورًا من سراة الفرنسويين يحتفلون بدفن سيدةٍ من كبرآئهم فزادهُ المنظر تأثرًا ثم استدل على ضريح والدتهِ فجثا امامهُ وهو يرشهُ بدموعهِ ويقبل ترابهُ مستمطرًا عليهِ الرحمة . وانهُ لكذلك واذا باحد رجال الجنازة قد اقترب منهُ وسألهُ أأنت القبطان اندري ارسول . قال نعم . قال لك عندي هذه الرسالة وهي من السيدة التي ندفنها الآن . فاستغرب اندري الامر واخذ الرسالة فقرأ على غلافها ما يأتي « تسلم هذه الرسالة الى المسيو أندريه أرسول بعد وفاتي » والتوقيع « البرنسيس شامورين » . فزاد تعجب اندري واستغرابهُ ومال الى جانب وفتح الرسالة فقرأ فيها ما يأتي

« الى أندري برنس دي شامورين او الكنت لاتور — كما يحب

« يا ولدي العزيز وفلذة كبدي

« لا اذكر شيئًا من عواطفي الآن ولا احاول ان افتتح بديباجة لا لزوم لهـا فانا ماري لويز برنسيس دي شامورين ربيت في بيت والديَّ بالعز والدلال على الفضائل المسيحية والتقوى . واحببت في السنة الرابعة عشرة من عمري فتًى من اسرة

عريقة في الحسب والفضل والاحسان يدعى الكنت لاتور وكان آية الشهامة والكمال والعفة والاستقامة ولكنهُ كان قد اخنى عليهِ الدهر فسلبهُ اموال اسرتهِ الطائلة وكان يعيش من كدّهِ واجتهادهِ . فلما طلبني من والدي امتنعا من اجابته لضيق ذات يدهِ كشأن جميع الوالدين من كل الطبقات فعمد الكنت لاتور الى العمل والاجتهاد ليتمكن من الحصول عليَّ . ولما زاد بنا الحب المتبادَل ولم يبقَ لنا صبرٌ على البعاد اتفقنا فتوجهت واياهُ الى دير مارل حيث عقدنا زواجاً شرعيًّا وسجلنا زواجنا في دفاتر الدير ولم يدرِ بذلك سوى خادمتي الامينة ارسولة . غير اننا خفنا ان يشيع ذلك عنا و بعد مساعٍ كثيرة واتخاذ وسائط شتى وُفق لاتور الى الدخول في احدى الشركات وسافر الى الهند على امل ان يرجع بعد مدة قصيرة بمالٍ وافر يضمن لهُ رضى والدي من اقتراني بهِ ولكنهُ وا اسفاه لم يبلغ الهند حتى اصابهُ الطاعون وتوفي بهِ . وغلبت عليَّ المؤثرات فكدت افقد عقلي لولا حسن تدبير ارسولة فانها بذلت جهدها في اقناع والدي وسافرت بي الى كرلسباد لنقضي فيها ستة اشهر وهناك ولدتُ ولدًا ذكرًا دعوتهُ باسم ابيهِ اندري وعدت بهِ و بارسولة الى دير مارل حيث سجلت ولادتهُ وعمدتهُ ثم اكتريت لارسولة بيتاً ووكلت اليها تربية ولدي الوحيد وثمرة محبتي الاولى وكنت ازورهُ يوميًّا فاقبل وجنتيهِ النضيرتين واقضي الساعات الطويلة امام سريرهِ واري فيهِ وجه والدهِ وملامحهُ . ولما كبر وصار قادرًا ان يميزني وخشيت سوء العاقبة جعلت لا ازورهُ الا وهو نائم فاقبلهُ بحرقة وكثيرًا ما كانت دموعي تسقط على وجههِ فتوقظهُ فكنت انسلّ بدون ان يشعر بي . ولما اتمّ دروسهُ سعيت لدى عمي ناظر الحربية فعينهُ برتبة حسنة وهو يجهل من هو ثم سافر الى الجزائر وكنت اتلقى عنهُ البشائر الجيدة والاخبار المفرحة الى ان بلغني خبر اسرهِ وآه ما اطول الليالي والساعات التي قضيتها في البكآء والنحيب والتضرع اليهِ تعالى ان يمنّ عليَّ بمشاهدتهِ مرةً اخرى . والآن أثق تمام الثقة بانهُ وان لم يسمح لي الله بمقابلتهِ فلا بدّ من خلاصهِ ورجوعهِ الى وطنهِ ولذلك اكتب اليهِ هذه الرسالة

« وقد توفيت ارسولة بسبب حزنها على ربيبها اندري ودفنّاها بما تستحق من الاكرام في مدفن الاسرة وسأتبعها عن قريب حزناً على ولدي الوحيد . فاذا عدت يا اندري وانا حية فهي نعمة من الله والا فسيصلك كتابي هذا وبما ان والديَّ توفيا وتركا لي كل املاكهما فانا اترك لك كل ما اتصل ويتصل بي من المقتنى والميراث وما عليك لاظهار حقوقك سوى الاستشهاد برئيس دير مارل فهو عارف بجميع ما جرى. اما اسمك فانت مخيرٌ في ان تنتسب الى ابيك فتكون الكنت لاتور او تحافظ على اسم والدتك فتكون البرنس شامورين

« ولقد كنت اود ان اراك الآن فاضمك الى صدري قبل انقضآء نفسي الاخير ولكني ارى الضعف قد بلغ مني وقد قربت من الاجتماع بالخادمة الامينة ارسولة فاستودعك الله يا ولدي الحبيب الى الملتقى في حضرته وثق انني من علو السمآء ارعاك واطلب لك التوفيق والهنآء »

. . . . . .

وكان اندري يقرأ وهو كالمأخوذ واتم القرآءة وهو لا يكاد يرى شيئاً من كثرة الدموع واذا بالذي احضر لهُ الكتاب قد وقف امامهُ وقال لهُ انا رئيس دير مارل ورسول والدتك التي ندفنها الآن فاذا شئت ان تودعها الوداع الاخير فاسرع قبل ان يهال على ضريحها التراب . ورأى الكاهن ضعف اندري وشدة تأثره فاقتادهُ بيدهِ الى حيث رأى جثة والدتهِ فسقط عليها يقبلها ويغسلها بدموعهِ وهو يقول « كان تسليمها عليَّ وداعاً »

ولازم الكاهن اندري فجعل يعزيهِ ويسليهِ على فقدهِ والدتين في وقتٍ واحد ثم سعى في اعلان زواج الكنت لاتور بالبرنسيس شامورين وهكذا آلت الالقاب والثروة الى اندري . وكان من اول اعمالهِ بعد ترتيب اشغالهِ ان بنى ضريحاً فخماً جمع فيهِ جثة والدهِ التي كانت قد احضرتها الشركة الى فرنسا وجثتي والدتهِ ومربيتهِ فكان يزورهم صباحاً ومسآء وهو يفتتح سلامهُ عليهم برضى الله ويختمهُ بطلب رضى الوالدين